

إفريقيًا للأفريقيين

## المراجع الأجنبية

*G. Sergi* : *Mediterranean Race.*

*Albert Pingaud* : *L'Empire Français.*

*H. G. Wells* : *The Outlook for Homo Sapiens.*

*Mancini* : *La Vie des peuples dans l'Humanité.*

*W. W. Tarn* : *Alexander and the Unity of Mankind.*

*Leon Abensour* : *Woodrow Wilson.*

*Clarence K. Streit* : *Union Now.*

*Mac Crone* : *Race Attitudes in South Africa.*

*A. G. Russell* : *Colour, Race, and Empire.*

*Orde Browne* : *African Labourer.*

*Huxley and Haddon* : *We Europeans.*

*Arther de Gopincau* : *Traité sur l'inégalité des races humaines.*

*A. C. Haddon* : *The Races of Mankind.*

*Gregory* : *The Menace of Colour.*

*Maciver* : *Community.*

*Steer* : *Judgment on German Africa.*

*McDougall* : *Psychology.*

*W. E. B. Dubois* : *Worlds of Colour*

*James* : *History of Negro Revolt.*

*Macmillan* : *Africa Emergent.*

*The Encyclopaedia Britannica* : word "Africa."

وغيرها من المراجع المشار إليها في أبواب « أهداف العمل لمصر » و « مصر مقبرة  
الغزاة » و « مصر والاقطار العربية »

من الظواهر الجغرافية في القارة الافريقية أنه لا توجد في قلبها حواجز طبيعية تفصل بين شعوبها . وانعدام هذه الحواجز هو الذي ساعد على هجرة القبائل الافريقية من مكان إلى آخر . وامتزاج هذه القبائل والتشابه في ثقافتها . كما أنه لا توجد أنواع متباينة من الأجناس المختلفة التي تكون سكان هذه القارة الذين ترتفع بينهم نسبة الاجناس الرحالة ارتفاعاً عظيماً<sup>(١)</sup>

وأجناس افريقيا الرئيسية هي .

١ - سكان الغابات والمناطق غير المطرودة<sup>(٢)</sup>

٢ - الزوج<sup>(٣)</sup>

٣ - الحاميون الذين يقطنون شرق القارة<sup>(٤)</sup>

٤ - الليبيون<sup>(٥)</sup>

٥ - الساميون<sup>(٦)</sup>

والقسم الأول من هذه الأجناس يتميز بقصر قامته وبسمره بشرته

سمره مائلة إلى الاصفرار . وكانوا يقطنون في بادىء الأمر في جنوب افريقية

فاضطرتهم قبائل الهوتنتوت<sup>(٧)</sup> والبانتمو<sup>(٨)</sup> وهي قبائل تقطن جنوب غرب

(١) The Encyclopaedia Britannica الطبعة الحادية عشر — كلمة Africa

عند الكلام على الاجناس الافريقية Ethnology

Bushman (٢)

Eastern Hamite (٤)

Negro (٣)

Semite (٦)

Libyan (٥)

Bantu (٨)

Hottentots (٧)

أفريقية ، الى الهجرة فوصلوا إلى بحيرة تنجانيقا . ولاشك أن أوجه الشبه كبيرة بين سكان الغابات وبين « الهوتنتوت » و « البانتو » وهي تبدو في قصر القامة والبشرة السمراء المصفرة .

أما القسم الثاني وهو الزوج فيسكنون باقى وسط أفريقيا بما فيه وادى النيل الأعلى - باستثناء الحبشة والسومال - كما أن هذه المنطقة من وسط أفريقيا تسكنها القبائل الرحالة التي تكونت من امتزاج الليبيين فى الشمال بالعرب الساميين والحاميين فى الشمال الشرقى من القارة . والقسم الثالث من الأجناس الأفريقية وهم الحاميون يسكنون السومال والحبشة ولو أن الأحباش قد امتزجوا بالساميين فتكون من هذا الامتزاج جنس سامى حامى .

والقسم الرابع وهم الليبيون . المعروفون بالبربر <sup>(١)</sup> يسكنون شمال أفريقيا فى الجزائر ومراكش . وهم شعب أبيض متأثر بالطابع العربى . والقسم الخامس وهم الساميون . يسكنون شمال شرق القارة أى السودان ومصر وما جاورها .

ويجمع الاخصائىون فى علم الاجناس ethnology على أن الشعب الذى أحدث أم انقلاب « جنسى » فى شعوب أفريقيا هم العرب . ففى الشمال وفى الشرق ترك العرب أثراً واسعاً راسخاً بنشر الدين الاسلامى فى جميع أرجاء السودان كما أن هؤلاء الاخصائىين يقررون أن الجغرافية « الفسيولوجية » لافريقيا لاتضع عقبات طبيعية فى طريق الحركات « الجنسية » أى رحلة الأجناس المختلفة من مكان إلى آخر وامتزاجها <sup>(٢)</sup> ويقررون أيضاً أن

العرب كانوا منذ عصر ما قبل التاريخ مختلطين بالمصريين وكان نشاطهم باديا في شمال أفريقيا<sup>(١)</sup>. وقد ثبتوا اقدمهم على شاطئ أفريقيا الشرقى وكانوا يقوموا بحملات مستمرة لاقتناص العبيد من الداخل حتى وصلوا الى « الكونجو » وليس الجنس المعروف باسم « السواحلى » الذى يقطن شاطئ أفريقيا الشرقى من خط الاستواء الى درجة ١٦ عرض جنوباً إلا مزيجاً من العرب و « البانتو »

كما أن الامتزاج بين الليبيين والزنج قد أثمر جنساً يدين بالاسلام ويقطن شاطئ أفريقيا الغربى من شمال النيجر الى حوض النيل .  
١ - والواقع التاريخى الذى لا نزاع فيه أن أول ما عرف عن أفريقيا هو نصفها الشمالى فكان اسم افريقيا يطلق بادىء الأمر على البلاد المجاورة لقرطاجة التى أُنشئت فى عام ٨٠٠ قبل الميلاد . ولا يزال العرب يطلقون اسم افريقيا على تونس . كما أن المدينة المصرية القديمة هى أول مدينة ظهرت فى القارة الافريقية . والفينيقيون هم أول من استعمر الجزء الافريقى من شاطئ البحر الأبيض المتوسط قبل الميلاد بألف سنة ، والمصريون وأهل قرطاجة هم أول من حاول الوصول الى الجهات المجهولة من القارة بواسطة البحر .

ويروى هيروودوتس المؤرخ الاغريقى أن الملك نيجو Necho الذى حكم مصر عام ٦٠٠ قبل الميلاد قد أرسل بعثة قوامها بحارة فينيقيون طافت حول شاطئ افريقية من البحر الأحمر الى البحر الأبيض المتوسط وقد قضت هذه البعثة ثلاثة أعوام فى أعماق مهمتها .  
ومن الثابت تاريخياً أن الرحالة هانو Hanno القرطاجى قد أتم العمل

الذي بدأه المصريون في عام ٦٠٠ قبل الميلاد فطاف شاطئ أفريقيا الغربية حتى سيراليون في عام ٥٢٠ قبل الميلاد .

وكما أحدث العرب أهم انقلاب « جنسى » في شعوب أفريقيا باختلاطهم بأهلها . أحدثوا أيضا أبرز أثر في تاريخها . وقد بدأ غزو العرب للقارة الأفريقية في القرن السابع الميلادي وهم مؤمنون بالاسلام . وتابعوا الغزو من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطي

وفي القرون الثامن والتاسع والعاشر بعد الميلاد كان عدد العرب في أفريقيا قليلا ولكن هجرتهم إليها زادت في القرن الحادي عشر وامتزجوا بالبربر الذين كانوا قد أصبحوا يتحدثون باللغة العربية كلغة أصلية ويدينون بالاسلام . وامتد النفوذ العربي إلى الجنوب عبر الصحراء واستقروا في شرق أفريقيا . واتضح أن العرب كانوا قد وصلوا إليه من قبل واستغلوا أراضيه الغنية كمباسا وزاولوا التجارة في الوقت الذي كانت تجهل فيه أوروبا كل هذه الأقطار الأفريقية كما كان يجهلها عرب شمال أفريقيا .

ولم يقتصر النفوذ العربي على شمال وشرق أفريقيا بل امتد أيضا إلى غرب القارة . فأسس الأغلب — وهو أحد قواد هارون الرشيد — الأسرة الأغلبيية التي كانت تحكم باسم خليفة المسلمين .

وفي أوائل القرن العاشر تأسست الدولة الفاطمية في مصر وأنشأت مدينة القاهرة — أكبر مدن القارة — عام ٩٦٨ بعد الميلاد وامتد سلطانها إلى المحيط الأطلنطي .

وقد تجلّى في العرب الذين هاجروا إلى أفريقيا ما امتاز به جنسهم من روح المغامرة والتحمس في بث الدعوة للإسلام وحضرتهم هذه الميزة على اكتشاف مجاهل القاهرة ، وأعانهم استعمال الجمل في قطع المسافات الطويلة

عبر الصحراء . فامتد نفوذهم إلى « سنجاميا » وحوض النيجر الأوسط ودانت « تمبوكتو » بالاسلام عام ١٥٩١ . ولا شك أن أول وصف علمي لشاطئ أفريقيا الشرقى هو وصف الرحالة « ابن بطوطة » الذى وصل إليه عام ١٣٣٢ وأعطى صورة دقيقة للمدن الاسلامية الزاهرة كمباسا وغيرها .<sup>(١)</sup>

وفى خلال القرن الخامس عشر الميلادى — وكانت بمصر تزعم جميع البلاد العربية — طاف الرحالة البرتغالى فاسكوده جاما حول رأس الرجاء الصالح ووصل إلى ميناء مالندى malindi فى شاطئ شرق أفريقيا عام ١٤٩٨ وكان يخيل إلى الأوروبيين أنهم أسبق الناس إلى اكتشاف هذا الشاطئ ولكن فاسكوده جاما التقى هناك بالرحالة العربى أحمد بن مجيد وقد استعان الرحالة البرتغالى بما كان يحمله الرحالة العربى من خرط بحرية دقيقة ومن أدوات ملاحية لم تكن معروفة لدى الأورو بيين وقد ظل اسم أحمد بن مجيد إلى أقل من قرن مضى يذكر على أنه أمر بحار طاف بسواحل أفريقيا الشرقية بل هناك من يذهب إلى أنه هو الذى اكتشف البوصلة البحرية<sup>(٢)</sup>

وظل للعرب — حتى بعد أن بدأت أطماع الدول الأوروبية الاستعمارية تتطلع إلى أفريقيا — فضل السبق فى اكتشاف مجاهل القارة . فقد انشأوا مدينة زنبار فى الجزيرة التى تحمل اسمها عام ١٨٣٢ ومنها بدأوا رحلاتهم إلى بحيرات شرق أفريقيا .

(١) The Encyclopaedia Britannica — كلمة Afria

(٢) Richard Burton من بحث عن « البحارة العرب » العدد ١٠ السنة ٤

وقد تحدثنا في الباب السابق عن فضل مصر في اكتشاف منابع النيل وفي وضع أول خريطة علمية عرفها العالم من شاطئ شرق أفريقيا .

٢ - وكانت البرتغال هي أول دولة أوروبية تطلعت أطماعها الاستعمارية إلى أفريقيا . فقبل رحلة فاسكوديه جاما كان الأمير هنري «الملاح» ابن الملك جون قد وصل إلى غينيا في أفريقيا عام ١٤٨٠ كما وصل إلى المناطق التي كان قد سبقه العرب إليها بين سوفيالا ورأس جرد فوي Guardafui . ولم يلبث أن استولى على موزمبيق التي كانت أكبر مدينة إسلامية في شرق أفريقيا .

٣ - وفي عام ١٦٢٠ استولى ضابطان من ضباط شركة الهند الشرقية على خليج المائدة Table Bay باسم الملك جيمس الأول ملك إنجلترا بحجة الخشية من أن تحرم المراكب الإنجليزية من الحصول على الماء إلا برخصة وتظاهرت لندن إذ ذاك بأنها لا تقر هذا العمل !

٤ - وفي عام ١٦٥١ أرسلت شركة الهند الشرقية الهولندية ثلاث مراكب صغيرة تحت قيادة جان فان ريبك Jan van Riebeck فوصل إلى خليج المائدة في ٦ أبريل عام ١٦٥٢ وكان وصوله أول استقرار للجنس الأبيض الأوروبي في هذه المنطقة .

ولعل أدق وصف للأطماع الاستعمارية التي حدثت بالدول الأوروبية إلى انتزاع أراضي أفريقيا من أهلها الذين كانوا قد امتزجوا في أغلب أنحاءها بالعرب وتأثروا بثقافتهم ودينوا بدينهم ، وتكلموا لغتهم مدة تزيد على عشرة قرون أن أولئك المستعمرين الأوروبيين «لم يهتموا بأهالي القارة أو بأرضهم إلا بالقدر الذي يمكن المستعمرين من الحصول بأبجس ثمن وأقل عناء على

ما يملكه أولئك الاهالى أولئقلهم إلى الخارج ليعملوا كعبيد فى مزارعهم بأمرىكا» (١)

٥ — وقد احتلت انجلترا مستعمرة الكاب فى عام ١٨٠٦ وان كانت حروبها مع نابليون قد عاقبتها عن ضمها رسمياً إليها إلا فى عام ١٨١٦. ولكن اهتمام انجلترا بالتوسع قل عام ١٨٥٤ عندما منحت الاستقلال لبوير نهر أورانج. وكاد هذا الاهتمام ينعدم عام ١٨٦٥ عند ما وافق مجلس العموم بالاجماع على تقرير اللجنة التى اتمدها لبحث شؤون غرب افريقيا فقد نص فى هذا التقرير على أن « كل توسع فى الحصول على أرض أو تولى السلطة وكل معاهدة تقضى بمنح أية حماية للقبائل الوطنية يجب أن يقف كل اجراء بشأنه » (٢) ولكن هذا القرار الذى صدر بالاجماع من مجلس العموم لم يلبث أن تبخر أمام التيار الاستعمارى الذى جرف ساسه انجلترا بعد أن احتلت مصر عام ١٨٨٢ بحجة حماية الخديوى توفيق من ثورة العرابيين . وأصبح الحلم الجميل الذى يداعب خيال المستعمرىن الأنجليز هو انشاء خط واحد من المتلكات ومناطق النفوذ البريطانى يمتد من جنوب افريقيا إلى شمالها . أى من مستعمرة الكاب إلى القاهرة .

ولعل أصدق تعبير عن هذه العقلية الاستعمارية هو ما ذكره رودس Rhodes — الذى سميت مستعمرة « روديسيا » باسمه — فى مذكراته إذ قرر « إذا كان هناك إله فان ما يجب أن يطلبه منى هو أن أصبغ أوسع مساحة ممكنة من خارطة افريقيا باللون الأحمر البريطانى » .

(١) The Encyclopaedia Britannica كلمة Africa الطبعة الثانية عام ١٧٩٧

(٢) All further extention of territory or assumption of government, or new treaty offering any protection to native tribes, would be inexpedient.

وكان «رودس» يعلق في منزله خارطة تنقسم إلى قسمين أعلاهما فيه الهلال المصرى وأسفلهما فيه آل Springbok أى رمزجنوب افريقيا ، وبين الاثنين العلم البريطانى وهو يشير بذلك إلى مشروع وصل شمال افريقيا بجنوبها بسكة حديدية تمر فى أراضٍ بريطانية وكان يرى أن إنشاء هذه السكة يحقق حلم انجلترا فى السيادة على افريقيا من الشمال إلى الجنوب (١)

كما أن خير تحليل لحقيقة الدوافع التى حفزت المكتشفين الى ارتياد مجاهل افريقية هو ما كتبه أميل لودفيج عن رحلة الرحالة الأمريكى ستانلى الذى أوفدته انجلترا إلى مديرية خط الاستواء بحجة انقاذ أمين باشامديره المصرى بعد أن انقطعت الصلة بينه وبين القاهرة بسبب ثورة المهدي فى السودان إذ قرر « هل كان يُعنى هذا الرجل الحديدى - مهما كانت تقواه - هل كان يُعنى محطم الصخور كما كان الزوج يدعو له عند ما كان يرغبهم على تحطيم الصخور القائمة على شاطئ النهر - هل كان يُعنى ستانلى بانقاذ حياة الزوج ، أليس هو الذى كان يطارد الزوج بمدفع الرجل الأبيض وقبضه يد الفاتح ؟ لم إذن يحشد كتبه بالإشارة إلى مبادئ المسيحية والحب الأخوى وهى المبادئ التى لم يشعر بها قط ؟ .. إن ستانلى كان ينظر دائماً الى الرجل الأسود نظرتة الى عدو » (٢)

وقد بلغ الأمر فى استعمار أوروبا لأفريقيا إلى حد اعتبار أراضى هذه القارة ضياعاً للدول الأوروبية المستعمرة تباع وتشترى بعدمساومة بين البائع

(١) Emile Ludwig : Genius and Character من دراسة عن Rhodes

ص ٨٩ و ٩٢

(٢) Emile Ludwig : Genius and Garactea من دراسة عن Stanley ص

٧٠ و ٧٥ .

والمشترى على تحديد الثمن . فقد دفعت إنجلترا إلى البرتغال في عام ١٨٧٦ تسعين ألفاً من الجنيهات مقابل تعديل الحدود بينهما تحديداً من مقتضاه عد « كمبرلى » وحقول الماس التي بها أرضاً انجليزية . وفي ١٢ ابريل عام ١٨٧٧ أعلنت إنجلترا ضم الترنسفال إليها بعد أن كانت معروفة باسم « جمهورية جنوب افريقيا »

٦ -- وبدأت بلجيكا ترنو الى القاره الافريقية البكر . فدعا الملك ليوبولد في سبتمبر عام ١٨٧٦ الى مؤتمر عقد ببروكسل وحضره ممثلو بريطانيا وبلجيكا وفرنسا و ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا وروسيا لمبحث « خير الوسائل لاكتشاف وتمدين افريقيا وفتح داخل القارة للتجارة والصناعة ! » . وقرر المؤتمر إنشاء « الجمعية الدولية الأفريقية » The International African Association وأسست كل دولة من الدول التي مثلت في المؤتمر لجاناً فرعية كان مفروضاً أن تتعاون في العمل ، ولكن الأطماع الاستعمارية جعلت تلك اللجان تعمل منفردة ومستقلة عن الجمعية ولم يتحقق الأمل في جعل تقدم افريقيا ملحوظاً فيه صالح الدول المؤتمرة معاً . وانتهى الأمر بأن أصبحت الجمعية بلجيكية وتحولت أخيراً الى إنشاء دولة الكونجوجو الحرة تحت سيادة الملك ليوبولد الشخصية ، وقد زعم ستانلي الذي أرسله الملك ليوبولد لاكتشاف منابع الكونجوجو بأن مهمته هي « بذر المؤسسات المتمدنية على شاطئ النهر وغزو القارة غزواً سلمياً وصياغتها في قالب ينسجم مع الأفكار العصرية وإنشاء مقاطعات وطنية يستطيع التاجر الأوروبي أن يتبادل فيها الاتجار مع الافريقي الأسود على أن تسود علاقتهما فكرة العدالة والقانون والنظام »

ولكن هذه المبادئ لم تلبث ان انهارت أمام الأطماع الاستعمارية.

فامصطدم ستانلي - الذي أنشأ مدينة «ليو بولدفيل» نسبة إلى الملك ليو بولد -  
بالمكتشف الفرنسي سافورنان ده براتزا Savorgnan de Brazza الذي  
كان قد أرسله الفرع الفرنسي للجمعية الدولية الأفريقية فأنشأ «برازافيل»  
- نسبة إلى اسمه - واتفق مع حاكم من الحكام الوطنيين زعم أن سيادته  
تتمدد إلى المقاطعة التي اكتشفها ستانلي .

٧- وفي ابريل عام ١٨٨٤ وجه الأمير بسمارك مستشار الدولة الألمانية  
رسالة بواسطة القائم بأعمال السفارة الألمانية في لندن إلى الحكومة الانجليزية  
يخبرها فيها بأن الدكتور جوستاف ناتشيجال Gustav Nachtigal القنصل  
الألماني العام موفد في مهمة إلى شاطئ غرب أفريقيا لإتمام المعلومات التي  
لدى وزارة الخارجية الألمانية عن حالة التجارة الألمانية هناك ... ولكن لم  
تلبث ألمانيا أن أعلنت في ٥ يوليو عام ١٨٨٤ أنها وقعت معاهدة مع ملك  
توجو Togo وضعت فيها مملكته تحت الحماية الألمانية . وبعد أسبوع  
وضعت الكمرون تحت الحماية الألمانية هي الأخرى .

وفي نفس ١٨٨٤ تألفت في ألمانيا جمعية للاستعمار الألماني وقد اندمجت  
هذه الجمعية في عام ١٨٨٧ مع « الجمعية الألمانية الاستعمارية »  
German Colonial Society التي كانت قد ألفت عام ١٨٨٢ . وفي  
٤ نوفمبر عام ١٨٨٤ وصل إلى زنبار ثلاثة شبان ألمان زعموا أنهم سياح  
- وهذا دليل على أن التقليد الذي اتبعه الجستابو الألماني في الحرب العالمية  
الأخيرة من التسلل إلى الدول التي لألمانيا رغبة في البطش بها قبل إيقاع هذا  
البطش ، يعود إلى التاريخ البعيد - وتنكروا في زي ميكانيكيين مع أنهم  
كانوا في الحقيقة أعضاء في جمعية الاستعمار الألماني وكانوا يخفون أعلاماً  
ألمانية وكمية وافرة من صيغ معاهدات معتزم عقدها مع الحكام الوطنيين

تقضى بوضع بلادهم تحت الحماية الألمانية أو ضمها إلى ألمانيا!  
وقد عقدت الدول الأوروبية التي لها أطماع استعمارية في أفريقيا في  
أواخر عام ١٨٨٤ مؤتمراً ببرلين انتهى إلى عقد معاهدة وقعت في ٢٦ فبراير  
عام ١٨٨٥ نص فيها على أن الدول الموقعة تتعهد عند الحصول على جزء  
جديد من أراضي أفريقيا أو عند إعلان الحماية عليه بأن تعلن ذلك إلى باقي  
الدول الموقعة! ولكن بينما كان المؤتمر منعقداً وقعت معاهدة في «مبوزيني»  
Mbuzini ورفع العلم الألماني للمرة الأولى في شرق أفريقيا

٨ - وكان الرأي العام الفرنسي بعد الحرب السبعينية يميل إلى  
تركيز كل الجهود الحربية الفرنسية للثأر من ألمانيا بعد الولايات التي مرت  
به عام ١٨٧٠ وإلى أن توزيع قوى الجيش الفرنسي خارج فرنسا ليس في  
صالح الدفاع الوطني عنها. ولكن لما تولى جول فافر الوزارة تبين - كما  
يزعم المؤرخون الفرنسيون - « أن مستقبل فرنسا يحتم اتباع سياسة التوسع  
الخارجي في اتجاهات أربع هي تونس والكونجو ومراكش والهند  
الصينية» ومن العجيب أن هؤلاء المؤرخين يزعمون أن ذلك الاتجاه في الرأي  
العام الفرنسي الذي أشرنا إليه كان يدعو إلى الأسف لأنه لم يمكن فرنسا  
من التوسع في الاستعمار! (١)

ومما يثير ذعر الضمير الإنساني أن أراضي أفريقيا كانت تقسم بين  
الدول الأوروبية على موائد المؤتمرات دون أي نظر إلى إرادة أهلها كأنهم  
عبيد تنتقل ملكيتهم إلى الدول التي يرسو عليها مزاد الأرض التي  
يسكنونها. أو الدول التي ترى الشهوات «الديبلوماسية» أن تنال تلك

(١) Albert Pingaud - من بحث عن L'Empire Français في «لاروس

الشهري» عدد ابريل عام ١٩٤٠ ص ٦٠٩ .

الأرض دون غيرها . فان بسمارك قد « عرض امتلاك تونس على فرنسا »<sup>(١)</sup> فلم تلبث قوة فرنسية صغيرة أن احتلت تونس ووقعت مع « الباي » معاهدة « باردو » Bardo في مايو عام ١٨٨١ التي بمقتضاها قبل الباي وضع بلاده تحت الحماية الفرنسية !

وقد تبين المستعمرون الفرنسيون أن احتلال فرنسا لأعلى النيل يمكنها من استعادة مركزها في الشؤون المصرية . وهو المركز الذي فقدته بعد اشتراكها مع إنجلترا في التدخل لقمع الثورة العراقية عام ١٨٨٢ ولذلك عقدت مع دولة الكونجو الحرة الخاضعة لسيادة ملك بلجيكا معاهدة في ٢٧ ابريل عام ١٧٨٧ تنازلت فيها الأخيرة لفرنسا عن الأراضي الواقعة شرق نهر أوبانجي Ubangi

وفي ٢١ مارس عام ١٨٩٩ — عقب حادث الضابط مارشان في فاشودة — أعلن التصريح الانجليزي الفرنسي الذي تحققت به أطماع فرنسا في وصل ممتلكاتها في شمال أفريقيا وغربها ووسطها بعضها ببعض الآخر — في مقابل انسحابها من وادي النيل .

وكانت فرنسا قبل ذلك قد استولت على تمبوكتو عام ١٨٩٣ وفي نفس العام على داهومي بعد أن تغلبت على مقاومة ملكها « بهانزين » Behanzin وقبضت في عام ١٨٩٨ على الملك « ساموري » Samory الذي كان أهم خصم لفرنسا في تلك المنطقة وبذلك تم لفرنسا انشاء « افريقيا الغربية الفرنسية » بين عامي ١٩٠٢ — ١٩٠٤

ولكن لما رأت إنجلترا تسرب النفوذ الفرنسي من شاطئ افريقيا

الغربي إلى داخل القارة تقدم الانجليز من النيجرومن لاجوس ومن ساحل الذهب الذي كان تحت الحماية الانجليزية فتجدد الخلاف بين الدولتين ولكنه حسم في الاتفاقية التي عقدت بباريس في ١٤ يونيو عام ١٨٩٨ بين سيرادموندمونسون Sir Edmund Monson ومسيوهانوتو Hanotau وكما أن حلم انجلترا الاستعماري في افريقيا من انشاء خط من الممتلكات البريطانية والبلاد الواقعة تحت النفوذ البريطاني من مستعمرة الكاب إلى مصر قد بددته ألمانيا باستيلائها على مناطق تقطع هذا الخط ، فان حلم فرنسا الاستعماري في نفس القارة من بسط نفوذها على « حزام » من الأراضي تمتد من الغرب إلى الشرق . من السنغال على المحيط الاطلنطي إلى « أوبوك » Obock على البحر الأحمر حيث أنشأت فرنسا مدينة عام ١٨٨٤ قد بددته انجلترا بالتصريح الذي أعلنته الدولتان في ٢١ مارس عام ١٨٩٩ بعد حادث « فاشودة »

\*\*\*

هذا موجز سريع لتاريخ استعمار أوروبا لافريقيا . وهو تاريخ حاشد بالأمثلة الناطقة على مجرد المستعمرين من كل عاطفة نبيلة نحو أهالي القارة الأصليين وعلى جشع أولئك المستعمرين في الاستيلاء على أكثر ما يمكنهم الاستيلاء عليه من خيرات القارة . وهو تاريخ تقضى الصراحة بأن نقرر أنه لايشرف المدنية الأوروبية قط . فان المستعمرين البيض الذين تزخر كتبهم بالإشارة إلى مبادئ الحرية والمساواة والديموقراطية لم يفكروا في محاربة النخاسة في مستعمراتهم الافريقية إلا بعد أن خطت مصر الخطوة الأولى في محاربتها بالفرمان الذي أصدره الخديوي اسماعيل في أول ابريل عام ١٨٦٩ والذي عهد به إلى سيرصمويل بيكر القضاء على النخاسة في كل

المناطق التي يمتد إليها النفوذ المصري . فبعد انقضاء تسعة عشر عاماً على بدء  
مصر جهادها التاريخي لمحو النخاسة تحركت أوروبا في خريف عام ١٨٨٨  
بدعوة وجهها لورد سالسبورى إلى ملك بلجيكا يعرض عليه فيها عقد مؤتمر  
في بروكسل لبحث الوسائل « لالغاء تجارة الرقيق في افريقيا الغاء تدريجياً  
وغلق أسواق النخاسة الخارجية التي تستورد العبيد من افريقيا حالا » وقد  
أصدر ذلك المؤتمر قراره في ٢ يوليو عام ١٨٩٠ فكان مما جاء فيه « وضع  
نهاية للجرائم التي نتجت عن الاتجار في عبيد افريقيا وحماية سكان افريقيا  
الاصليين حماية فعلية من الانقراض »

فاذا نظرنا الى خارطة افريقيا وجدنا ان مساحتها تبلغ ٨١١ر٤٥٨ر١١  
ميلاً مربعاً . تسكن الشعوب السامية الحامية التي تتكلم العربية وتدين  
غالبيتها العظمى بالاسلام نصف هذه المساحة . فمصر والسودان تبلغ  
مساحتهما ١٦٠٠ر٠٠٠ ميل مربع واوغندا - اى مديريةية خط  
الاستواء المصرية - مساحتها ١٢٥ر٠٠٠ ميل مربع وممتلكات فرنسا  
الافريقية تسكنها كلها تلك الشعوب وتبلغ مساحتها ٣٨٦٦ر٩٥٠ ميلاً  
مربعاً، وممتلكات إيطاليا - إلى ما قبل الحرب الأخيرة - كلها تسكنها  
نفس تلك الشعوب وتبلغ مساحتها ٦٠٠ر٠٠٠ ميل مربع وهى مجموع  
مساحة اريتريه والصومال الايطالى وطرابلس . فاذا أضفنا الى ذلك الدول  
الافريقية الثلاث المستقلة وهى « ليبيريا » و « كس » والحبشة التى مجموع  
مساحتها ٦١٣ر٠٠٠ ميل مربع لوجدنا أن هذه الشعوب السامية الحامية  
التي تتكلم العربية وتدين غالبيتها بالاسلام تقطن مساحة تبلغ نحو سبعة  
ملايين ميل مربع وعلى وجه التحديد تبلغ ٦٨٠٤ر٩٥٠ ميلاً مربعاً  
تقع شمال خط الاستواء . أما باقى افريقيا الذى يقع جنوب هذا الخط

فتمتظنه شعوب آرية تدين غالبيتها بالمسيحية وتكلم لغات أوروبية متشابهة كالهولندية والانجليزية والألمانية

ولا شك أن الوضع السياسي الحالي لأفريقيا يتناقى منافاة تامة مع المبادئ السياسية الدولية القويمة التي نبتت منذ عدة أجيال والتي تطورت مع الزمن فارتفعت الى مرتبة العقائد عقب الحرب العالمية الماضية . ثم ارتفعت خلال الحرب العالمية الأخيرة إلى مرتبة الايمان . تلك المبادئ التي تقر لكل مجموعة من الشعوب ، تجمع بينها وحدة الجنس واللغة والدين ، بأن تقرر مصيرها بنفسها دون تدخل أجنبي وأن تعيش الحياة التي تناسبها وتتفق مع مصالحها الخاصة وتمكنها من التعاون تعاوناً مشمراً خيراً حراً مع المجموعات العالمية الأخرى .

ولكن الدول الأوروبية المستعمرة رغم تبينها سمو تلك المبادئ لم تشأ مطلقاً محاولة تطبيقها في أفريقيا خشية المساس بمصالحها الخاصة . لأن ضعف أفريقيا السياسي والاقتصادي هو الهدف الذي يرمى اليه الاستعمار و «الجماعات الأوروبية تنتهز وقت ضعف الشعوب الشرقية للحصول على مراكز قوية في الميادين السياسية والاقتصادية وعلى امتيازات تجارية وأرض خصبة ولإطالة مدة الضعف الذي ينتاب الجماعة الشرقية وهي في دور التكوين وأن أكبر نفع يعود على الجماعة الشرقية من الاستقلال السياسي هو أنه يمكنها من حماية نفسها من الضعف الذي يبدو عادة في فترة التطور ويفسح المجال أمامها لتسخير موارد الدولة وقوتها التشريعية ووسائل تنظيمها في خدمة التقدم الثقافي والاقتصادي . على حين أن البلاد الواقعة تحت الحماية أو الانتداب أو غيرها من أشكال التوسع الاستعماري تترك بلا حماية في وقت

هى أحوج ماتكون فيه الى الحماية وذلك يعود بأبلغ الضرر على تقدمها في المستقبل<sup>(١)</sup>.

وكانت الدول المستعمرة تزعم دائما أنها توطد أقدامها في الأراضي المستعمرة لتمنقذ أهلها الأصليين من استبداد حكاهم بهم ولتنشر العدل والمدنية بين ربوعها.. ولكن المفكرين المنصفين من الأوروبيين أنفسهم أبوا أن يقبلوا هذا الزعم المضلل وكشفوا الستار عما يخفيه خلفه . وضربوا مثلا على ذلك شعبا من الشعوب التي لا تزال تعيش على القطرة هو شعب «جينيا الجديدة» الذي وضع بعد الحرب العالمية الماضية تحت انتداب استراليا . فان عدد أفراد هذا الشعب لا يعدون نصف مليون يعيشون في جماعات مستقلة . كل تعزبعداداتها الخاصة ولها مميزاتهم الفنية والاجتماعية وكانت الى وقت وضعها تحت الانتداب تحمل مشاكلها الناشئة من تزايد عدد السكان بشن حروب فيما بينها لم تكن آثارها مدمرة الى الحد الذي يقضى على كيانها وسرعان ما تستقر الأمور في نصابها بعد تلك الحروب فلما تولت حكومة « كانبيرا » الأمر منعت تلك الحروب ولكن اخضاع ذلك الشعب للاستغلال الاقتصادي ربما عاد عليه بمأس يفوق ضررها ما كانت تعود به الحروب التي كان يخوض غمارها<sup>(٢)</sup> .

كما ضربوا مثلا بايران قبل نهضتها الأخيرة وقرر وانته من الواضح للعيان أن سياسة الأوروبيين المتوحشة التي توحى بها الأثرة مع افتقار الحكومة الوطنية إلى الكفاءة هما السببان اللذان دفعا بذلك القطر الى الخراب

(١) Hans Kohn : Western Civilisation in the Near East p. 90

(٢) H. G. Wells : The Outlook for Homo Sapiens P. 29

الاقتصادي والاجتماعي<sup>(١)</sup> وأن تاريخ تلك الفترة في إيران هو مثل لما كان يجري في سائر أقطار الشرق .

وقرر الثقة في تاريخ الاستعمار الأوروبي لافريقيا وانشق الأدي أن بعض الحكومات الأوروبية والجاليات الأجنبية التي لها مصالح كبيرة تعتمد الأبقاء على النظم الرجعية القديمة في جميع الأقطار التي تمتد إليها نفوذها<sup>(٢)</sup> وهم يردون على ما يزعمه بعض المستعمرين الأوروبيين من أن المدنية الإسلامية قد تسببت في تدهور الشرق بأن « الأثر الثقافي العظيم الذي أحدثه العالم الإسلامي في المسيحية لا يزال يبدو إلى اليوم في الكلمات التي لا حصر لها ذات الأصل العربي التي توجد في لغاتنا الأوروبية . ولم يقف ذلك الأثر على المنتجات المادية التي انتقلت إلينا من الشرق بل إن الخطوط العريضة لحياتنا الاقتصادية . والمثل العليا لقروسة القرون الوسطى بما فيها شعر الحب الذي كان يتغنى به النبلاء الألمان Minnesingers قد انتقلت إلينا أيضاً من ذلك الشرق واتخذت مظهراً أوروبا . كما أن أساس كل تعليمنا في العلوم الطبيعية ، حتى الآراء الجديدة في الفلسفة وعلم الأديان التي أحدثت أثراً كبيراً أتت إلينا خلال ذلك العصر من الإسلام . ولم يكن تغلب الغرب على الشرق راجعاً إلى تفوق الغرب وإنما إلى تفسكك وحدة العرب واتساع امبراطوريتهم اتساعاً كبيراً »<sup>(٣)</sup> .

(١) رأى Hans Heinrich Schader في كتاب Morgan Shuster الذي أسماه The Starngling of Persia

(٢) Hans Kohn المرجع السابق ص ٩٦

(٣) المرجع السابق ص ٤٨٠

ولا شك أن الدعوة إلى اقرار مبدأ «أفريقيا للأفريقيين» على أساس تقسيم القارة الأفريقية إلى مجموعتين من الشعوب . إحداهما الشعوب السامية الحامية التي تتكلم العربية وتدين بالاسلام والأخرى الشعوب الآرية التي تتكلم لغات أوروبية وتدين بالمسيحية تجد ما يدعها من نفس الفكرة الاسلامية لأن الغرض من هذه الدعوة هو اقرار المبدأ الديمقراطي الذي يرد لأفراد كل مجموعة من المجموعتين الأفريقيتين حقهم الانساني في الحرية ، وإبعاد كل تدخل أجنبي ، ورفع العار الذي وصم الأفريقيين منذ اعتبرت قارتهم مباءة للاستعمار ، وضبعة للمستعمرين ، وسلعة تباع وتشترى بما عليها من الآدميين . وذلك الاستعمار هو الذي خلق تلك التعبيرات المذلة التي لا تزال تزخر بها الكتب الأوروبية والتي تفرق بين «الأبيض» و«الأسود» و«السيد» و«العبد» . ولعل أدق وصف لما يتضمنه الاسلام من ديمقراطية هو ما قرره أحد المستشرقين التقاة في تاريخ الشرق إذ قرر «أن روح المساواة الأخوية بين كل المسلمين تسود الاسلام ، وهذه الروح أخذها الغرب ودرسها واسكنها غريبة عن طريقة الحياة في المسيحية والصلف الجنسي ، أي الاعتزاز بجنس معين ، كان لا وجود له في الاسلام فكل من آمن بالله يقبل كأخ له نفس الحقوق التي لغيره من المؤمنين سواء كان زنجياً أم من الجنس الأصفر أو أوروبياً . ونجاح الاسلام العظيم في أفريقيا إلى اليوم يعود إلى هذه الروح» (١)

١ — وتقسيم العالم إلى مجموعات حرة ذات سيادة تكون كل منها أمماً متحدة في الجنس والدين واللغة ليس بدعة . بل إن فكرة إزالة

الفوارق بين أفراد الجنس البشرى قد نبئت في أفريقيا . وفي مصر على وجه التحديد . وكانت أوسع مدى مما ندعو إليه . فقد كان الاسكندر الأكبر بعد أن نقل عاصمة إمبراطوريته إلى الإسكندرية « أول من دعا إلى تحقيق أسهمى انقلاب في شكل العالم ، وأول رجل عرف لنا فكره في أن الناس إخوة وفي وحدة الجنس الإنساني »<sup>(١)</sup> .

٢ — وليس هذا البحث مجال التوسع في شرح تطور هذه الفكرة التي ترمى إلى إزالة الفوارق بين أفراد الجنس البشرى . ويمكن أن نذكر أن هذه الفكرة قد اتخذت شكلاً خاصاً في منتصف القرن التاسع عشر . عند ما دعا باسكال مانسيني Mancini في المحاضرات التي ألقاها على طلبته بجامعة تورين عام ١٨٥١ في القانون الدولي العام إلى اعطاء كل أمة تجمع بين أفرادها رابطة الجنس واللغة والأفكار الحق في أن تتحد لتصبح دولة وأن كل دولة تتكون من أفراد ليست بينهم تلك الرابطة إنما تقوم على الاستبداد والعدوان وهذه النظرية من أهم المبررات التي استند إليها جارibaldi في توحيد إيطاليا وفصلها عن النمسا<sup>(٢)</sup> وكانت بعض شعوب أوروبا في ذلك العهد ترزح تحت نير استبداد بعض الدول العظمى التي تفرض على تلك الشعوب التي تختلف عنها جنساً ولغة وديناً جنسيتها وسيادتها فأمن بتلك النظرية البلجيكيون وروج لها علامتهم لوران Laurent الذي قرر أن الأمم من عند الله les nations sont de Dieu فلا يملك الإنسان أن يتحكم في مصير

W, W. Tarn: Alexander and the Unity of Mankind (١)

Mancini : La Vie des peuples dans L'Humanité (٢)

٣ - وفي ٨ يناير عام ١٩١٨ أعلن الرئيس وودرو ويلسون Woodrow Wilson مبادئه السامية في تنظيم العالم وهي المبادئ التي تقوم على أساس الاعتقاد بإمكان الوصول بأفراد الجنس البشري إلى الكمال وبإمكان بناء عالم أمين جدير بالسكنى sûr et habitable عالم لا تعيش فيه الشعوب كالذئاب تفترس الشعوب الأخرى . وقد رأى ويلسون أنه لبناء هذا العالم الجديد يجب البدء بالقضاء على قلاع الاستبداد القديمة وعلى الحكومات التي تستند في حكمها إلى الطغيان . ثم دعوة كل الأمم الديمقراطية إلى نبذ السياسة القديمة التي كانت تحبذ عقد محادثات خاصة بزعم المحافظة على التوازن الدولي ، مع أن تلك المعاهدات في الواقع تحمل بين سطورها جرائم الحروب . وهذه المبادئ التي دعا إليها ويلسون يعود أصلها البعيد إلى روح الأخاء العظيمة والرغبة في السمواتين أوحيتا إلى المهاجرين بالهجرة إلى العالم الجديد وإلى حب الحرية والشعور بقداصة حق الشعوب . وهذه المبادئ تتأثر أيضاً بفلسفة التاريخ الأمريكي . ذلك التاريخ الذي صنعه خليط من الشعوب تنشب بينها الحروب في الأراضي التي أنجبته ومع ذلك فهي متماسكة متحدة في شعب واحد تحت السماء الجديدة التي أظلمها<sup>(١)</sup> .

٤ - ولما كان جذوة الدعوة إلى « الويلسونية » عقب الحرب العالمية الماضية خبت بسبب أطماع الدول الأوروبية المستعمرة فترة من الزمن ثم لم تلبث أن اضطرت بعدئذ في مؤتمر مونتيديو عام ١٩٣٣ الذي

خمس ممثلين للجمهوريات الأمريكيات فقد « أكدت هذه الجمهوريات يقينها وتشبثها بطائفة من المبادئ الأساسية التي يقوم بمقتضاها التعاون بين الأمم ويستتب النظام الدولي على أساسها ومن بين هذه المبادئ المبدأ القائل بأن كل أمة صغيرة كانت أمة كبيرة تتساوى مع الأمم الأخرى أمام القانون، وثمة مبدأ آخر هو حق كل أمة في إحداث أي تطور في مقوماتها وأنظمتها دون أي تدخل من جانب الدول الأخرى »<sup>(١)</sup>.

٥ - وفي ١٤ أغسطس عام ١٩٤١ عقد على ظهر السفينة بوتوماك ميثاق الأطلنطي Atlantic Charter بين الرئيس روزفلت ومستر تشرشل تقرر فيه

« ١ - أن البلدين لا يجريان وراء توسع إقليمي أو غيره .

ب - أنهما يرغبان في ألا يحدث أي تغيير إقليمي لا يتفق مع الرغبات الحرة لأهل البلاد التي يعينها الأمر .

ج - أنهما يحترمان حقوق كل شعب في اختيار شكل الحكومة التي يعيش في ظلها ويرغبان في أن يربوا حقوق السيادة والحكم الذاتي قد ردت إلى أولئك الذين حرموها منها قهراً »<sup>(٢)</sup>.

٦ - وعقب مؤتمر موسكو الذي عقد من ١٩ إلى ٣٠ أكتوبر عام ١٩٤٣

(١) تذييل مستر كوردل هل وزير خارجية الولايات المتحدة لفرات مؤتمر مونتفيدو في خطبته يوم ١٥ أبريل عام ١٩٤٤ في اتحاد الأمم الأمريكية .

(٢) They respect the right of all peoples to choose the form of government under which they will live, and they wish to see sovereign rights and self-government restored to those who have been forcibly deprived of them.

قرر مجلس الشيوخ الأمريكي أنه « يرى من الضروري أن ينشأ في أقرب وقت ممكن نظام دولي عام أساسه المساواة في السيادة بين جميع الدول المحبة للسلام وتفتح عضويته لجميع الدول المحبة للسلام صغيرة كانت أو كبيرة وذلك من أجل المحافظة على السلام والأمن بين الدول » وقد عرف هذا القرار باسم مقترحه عضو مجلس الشيوخ مستر كونالي Conally

وقد جاء قرار « كونالي » مؤيدا لقرار مشابه له أصدره مجلس النواب وعرف باسم قرار « فولبريت » Fulbright .

٧ - صرح مستر سمنرويلزوكيل وزارة الخارجية في خطاب ألقاه بفندق « وولدورف آستوريا » في أواخر عام ١٩٤٣ بمناسبة الاحتفال بانقضاء خمسة وعشرين عاما على تأسيس « جمعية السياسة الخارجية » بعد أن لزم الصمت أحد عشر عاما بسبب قيود وظيفته فقال « إنني مقتنع بأن كل تنظيم دولي يجب أن يقوم على الأساس الآتي وهو أنه « لاحق لأي شعب في حكم شعب آخر وأن الشعوب التي لها حقوق على شعوب أخرى يجب أن تعترف بأن رقابتها عليها ينبغي قبل كل شيء أن توجه لتحقيق غرض واحد وهو إعداد تلك الشعوب الأجنبية عنها للاضطلاع بتبعات الحكومة المستقلة في أسرع وقت ممكن » .

٨ - خطب مستر أنتوني إيدن وزير الخارجية الانجليزية في مجلس الكنيسة الحرة في أواخر شهر ابريل عام ١٩٤٤ فقال « إن الأمم المتحدة تقبل أن يتألف العالم بعد الحرب من جماعة تضم الدول المستقلة ولكن ينبغي ألا يخطر في البال قيام دولة عليها تشمل الجميع » .

٩ - قرر مستر كوردل هل وزير خارجية الولايات المتحدة في

خطابه التار يخى الذى ضمنه مبادئه الستة لاقرار السلام بعد الحرب .

« ١ - أن الحرية حق مقرر لكل أمة استطاعت أن تثبت أنها  
صالحة لأن تتقلد وتتحمل التبعات التى تفرضها الحرية .

ب - أن كل دولة صاحبة سيادة - صغيرة كانت أو كبيرة - هى  
فى القانون و بمقتضى القانون مساوية تماماً لكل دولة أخرى .

ج - جميع الأمم - صغيرة كانت أو كبيرة - التى تحترم حقوق  
الدول الأخرى لها الحق فى أن تتحرر من أى تدخل فى شؤونها الداخلية  
بواسطة أية دولة أجنبية . »

١٠ - وقد جاء فى مؤتمر يالطا الذى عقد فى فبراير عام ١٩٤٥ بين  
الرئيس روزفلت ومستر تشرشل والماريшал ستالين أن « لجميع الشعوب  
الحق فى اختيار شكل الحكومة التى ستعيش فى ظلها وأن تعاد حقوق  
السيادة والحكم الذاتى إلى الشعوب التى سلبتها منها الأمم المعتدية » وإن  
كان هذا القرار قد جاء منصرفاً إلى دول أوروبا المحررة إلا أن منطق  
المبادئ السامية التى أوحى إلى ساسة العالم بوضعه لا يمكن أن يفرق عند  
تطبيقه بين أوروبا وغيرها من قارات العالم . . .

١١ - وقد عقدت الدول الأمريكية مؤتمراً من ٣١ فبراير إلى  
٨ مارس عام ١٩٤٥ لبحث مشاكل الحرب والسلام بمدينة المكسيك  
وكان من أهم نتائج هذا المؤتمر التصريح المعروف باسم تصريح  
« شابولتبيك » The Act of Chapultepec وقد نص فى البند الخامس  
منه على :

١ - تحريم غزو الأراضى وعدم الاعتراف بأى امتلاك لأراض

ضمت بالقوة ( أول مؤتمر لدول أمريكا عام ١٨٩٠ )

ب — إنزال العقاب بكل دولة تتدخل في الشؤون الداخلية لدولة أخرى ( المؤتمر الدولي السابع لدول أمريكا ١٩٣٣ ومؤتمر لدول الأمريكية للمحافظة على السلم ١٩٣٦ ) .

وكان من نتيجة مؤتمر ١٩٤٥ المشار إليه أن صرحت الدول المشتركة فيه :

أولاً — أن جميع الدول ذات السيادة متساوية قانوناً في الحقوق .

ثانياً — أن كل دولة لها الحق في أن تحصل على احترام شخصيتها واستقلالها من جانب باقي أعضاء المجموعة الدولية .

١٢ — وفي ٢٥ يونيو عام ١٩٤٥ وافق مندوبو خمسين دولة في مؤتمر سان فرانسيسكو على « ميثاق الأمم المتحدة » الذي ينص في البند الثاني من الفصل الأول منه في باب « أغراض الهيئة ومبادئها » على « إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام مبدأ المساواة في الحقوق وتقرير مصير الشعوب والتوسل بغير ذلك من الأساليب الملائمة لتعزيز السلم » .

وينص في البند الثالث من نفس الفصل على :

« تحقيق التعاون على حل المشاكل الدولية ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والانسانية وإشاعة تشجيع احترام الحقوق الانسانية والحريات الأساسية للناس جميعاً من غير تمييز بين الأجناس واللغات والأديان أو تفریق بين الرجال والنساء » .

١٣ - وفي ٦ يوليو عام ١٩٤٥ اذاع هارولد ستينسن Harold Stassen أحد مندوبي الولايات المتحدة في مؤتمر سان فرانسيسكو أن سياسة الولايات المتحدة الخارجية تقوم على اثني عشر مبدأ . والمبدأ الرابع يقرر :

« إن الولايات المتحدة تعتبر أن رخاءها وأمنها مرتبطان برخاء وأمن الشعوب الأخرى . وأنها ستقوى اقتصادها في نفس الوقت الذي ستساهم فيه في تحسين مستوى المعيشة في البلاد الأخرى » .

والمبدأ الحادي عشر يقرر :

« أن الولايات المتحدة تعترف بكرامة الانسان وهي كرامة لازمة لكيانه وبحقه الذي لا يمكن التنازل عنه في الحياة وفي الحرية وفي البحث عن السعادة »

١٤ - وفي ٢٥ أكتوبر عام ١٩٤٥ أعلن سمروولز - وكيل خارجية الولايات المتحدة السابق - « أن رفض الاعتراف بحق الشعوب الشرقية في الاستقلال سينتهي إلى قيام اضطرابات من شمال أفريقيا إلى المحيط الباسفيكي ... إن الشعب الأمريكي يتبين الآن أكثر من أى وقت مضى أنه لا يوجد أمل في بناء عالم يسوده السلم والرخاء ، ادا امتلاتزال توجد مئات من ملايين الناس في آسيا وفي الشرق الأوسط لا يستطيعون نيل حريتهم التي عقدوا العزم على نيلها » .

١٥ - وفي ٢٧ أكتوبر عام ١٩٤٥ ألقى الرئيس ترومان خطاباً في « سنترال بارك » بمناسبة الاحتفال بيوم الحرية أعلن فيه المبادئ الاثني عشر التي تقوم عليها سياسة الولايات المتحدة الخارجية . فقرر في المبدأ الثاني :

« نحن نؤمن بما لجميع الشعوب التي حرمت حقوق السيادة والحكم الذاتي بالقوة من حق في إستعادة هذه الحقوق » (١).

وقرر المبدأ الرابع :

« نحن نعتقد أن من حق جميع الشعوب المستعدة للحكم الذاتي بأن يسمح لها بأن تختار بحرية نظام الحكم الذي تريد أن تعيش في ظله دون أن يكون لأحد دخل في هذا الاختيار وهذا الكلام ينطبق على أوروبا وآسيا وأفريقيا مثلما ينطبق على نصف الكرة الغربي » (٢).

ولقد قدمنا أن فكرة إزالة القوارق بين أفراد الجنس البشري قد بدأت أوسع مدى مما تطالب به . ولكنها توضحت بعد ذلك فاككتف بإنشاء مجموعات مستقلة من الشعوب المنسجمة . ومما يدعم وجهة نظرنا في الدعوة إلى إقرار مبدأ « أفريقيا للأفريقيين » على أساس إزالة القوارق التي افتعلتها الحدود الجغرافية غير الطبيعية في هذه القارة باملاء من المطامع الاستعمارية ، أن تلك الفكرة السامية التي كان الاسكندر الأكبر أول من فكر فيها - والتي شع ضوءها من مصر كما ذكرنا - عادت تبدو متسعة الأفق كما بدأت . فهناك من يدعو إلى أن الوقت أوف لإنشاء وحدة مكونة من خمسة عشرة دولة مستقلة من الدول الديموقراطية وهي الولايات المتحدة

---

We believe in the eventual return of sovereign rights and (١) self-government to all peoples who have been deprived of them by force.

We believe all Peoples who are prepared for self-government (٢) should be permitted to choose their own form of Government by their own freely-expressed choice without interference from any foreign source. This is true in Europe, Asia, and Africa, as well as in the western hemisphere.

الأمريكية والمجموعة البريطانية وفنلندة وفرنسا وهولندة وبلجيكا وسويسرة  
ودنمارك والنرويج والسويد . وليس الغرض من هذه الدعوة إنشاء عصبة  
أمم أو عقد تحالف بين هذه الدول وإنما الغرض خلق « اتحاد » Federation  
من الطراز الأمريكي له سياسة خارجية واحدة وعملة واحدة وجيش واحد  
ورقابة واحدة على التجارة الداخلية والخارجية وجنسية واحدة <sup>(١)</sup> .

ولاشك أن انتصار الديمقراطية في الحرب العالمية الأخيرة هو أكبر  
مبرر ومدعم لمبدأ « أفريقيا للأفريقيين » فإذا كانت « الديمقراطية هي  
حركة مضادة تتطلب حماية الفرد من الدولة . فهي ضد الفاشستية وضد  
النازية وضد الشيوعية وضد الحرب . لأنه لا توجد حرية في دولة خاضعة  
لنظام الحكم العرقى وعلى هذا فهي إنكار لحق الدولة في التدخل في حياة  
الفرد إلا في سبيل المصلحة العامة وبموافقة المجموع » <sup>(٢)</sup> فإن من السهل  
ادراك أن هذه الديمقراطية تستدعى من باب أولى حماية الدولة من تدخل  
دولة أخرى في شؤونها الخاصة . وحماية مجموعة شعوب من تدخل مجموعة  
شعوب أخرى غريبة عنها في شؤونها الخاصة .

وهذا الشعور بوجود حماية القارة الأفريقية من الشذوذ السياسى  
والجغرافى الذى افتعلته المطامع الاستعمارية ، قد أثار سمطس Smuts رئيس  
وزارة اتحاد جنوب أفريقية فصرح أمام برلمان بريتوريا بأن « أفريقيا  
على وشك مواجهة عهد جديد فى تاريخها وأنها ستصطدم بمشاكل لا تقل  
تعقداً عن مشاكل القارات الأخرى وأن النظام الإستعمارى تشوبه

(١) — Clairence K. Streit : Union Now. وقد ذكر H.G.Wells عند اشارته

لهذا الكتاب فى كتابه The Outlook for Homo sapiens أنه أثار اهتماما عظيما  
فى أمريكا وبريطانيا .

(٢) — G. H. Wells — المرجع السابق ص ٣٧ .

نقائص عديدة وتصرفات شاذة تتناقى مع المنطق كالأبقاء مثلاً على بلاد واقعة تحت الحماية داخلية في نطاق اتحاد جنوب أفريقيا . إن خارطة أفريقيا عجيبية من العجائب . إننى أعترف بأنى أشعر بأن العالم مدين بشيء من العضل لاجنوب أفريقيا لحسب بل لكل أفريقيا . فقد ساهمنا بنصيب فعّال في الحرب . والطريقة التي أدينا بها واجبنا في ظروف عصيبة أغلب الوقت تعطينا الحق في ان نطالب بشيء » وقد ختم كلامه بقوله « إننا نضع بطبيعة الحال جنوب أفريقيا في المسكان الأول من اهتمامنا ، فمصلحتنا ومصالح جيراننا الأقربين تنال أكبر قسط من اهتمامنا » (١) .

وقد صرح مسيو فيليكس ايبوى حاكم أفريقيا الاستوائية الفرنسية — الذى توفى أخيراً فى القاهرة — فى حديث نشرته صحف جوهانسبرج عن الحركة الجديدة التى ترمى إلى توثيق التعاون بين بلدان أفريقيا وأقطارها بأنه « ليس هناك أى تفكير فى قبول رقابة دولية على أفريقيا وأنه يأمل أن تتفق الأقطار الأفريقية على تبادل منتجاتها والعمل على تقديمها الصناعى » واقترح أن تؤلف جمعية دائمة من ممثلى البلاد الأفريقية لتشجيع هذه الفكرة

فالطريق ممهّد لقبول فكرة « الجامعة الأفريقية » وبالتالى الدعوة إلى إقرار مبدأ « أفريقيا للأفريقيين » . ومن الصعوبات التى قد تقف فى وجه هذه الجامعة وهذا المبدأ المنشودين ما يحتمل من أن تأخذ السياسة الاستعمارية العزّه بالأيّم فتتشبث بما تزعم أنه لها شبه حق مكتسب ! ومما

(١) خطاب الجنرال سمطس فى آخر مارس عام ١٩٤٤ — جريدة La Bourse

يؤيد هذا الاحتمال أن حزب العمال الانجليزي - وهو أقرب الأحزاب  
الانجليزية إلى المبادئ الديمقراطية - قد أعلن عن اتجاه سياسته  
الاستعمارية في مذكرة نشرها عقب المؤتمر الذي عقد في أواخر عام ١٩٤٣  
جعل عنوانها « نظام المستعمرات الدولي » فقرر أن امتلاك أراض  
مستعمرة يعطى للدولة التي تملكها مزايا « استراتيجية » واقتصادية كبيرة.  
وإن كانت هذه المزايا قد بالغت فيها الدول التي لا تملك مستعمرات . وأن  
امتلاك أراض مستعمرة يكاد منذ زمن طويل يكون احتكاراً ناله عدد  
قليل من الدول الأوروبية . ولذا اعتبرت الدول الأخرى - وخاصة التي  
تمتاز بنظام اقتصادي متقدم - حرمانها من الاستعمار عملاً لا عدل فيه !  
وحاولت مراراً القضاء على الاحتكار الاستعماري الذي نالته بعض  
الامبراطوريات الأوروبية . وأشارت المذكرة إلى أنه لما كانت الأراضي  
الصالحة للاستغلال قد تم توزيعها فانه لا يمكن إلا إلتماس حلين لهذه  
المشكلة : الالتجاء إلى القوة لغزو أملاك الغير أو توزيع الإمبراطوريات  
الاستعمارية توزيعاً جديداً سليماً . وقد استبعدت المذكرة الحل الثاني  
باعتبار أن هذا التوزيع الجديد قد يخل بتوازن المواد الأولية . واقترح  
حزب العمال حلاً لمشكلة الاستعمار الأخذ بالاتفاقيين المعقودين في برلين عام  
١٨٨٥ وفي بروكسل عام ١٨٩٠ الخاصين بحوض الكونجو والذين أدمجا  
في معاهدة « سان جيرمان آن لاي » عام ١٩١٩ وهذه الاتفاقات ترمي  
إلى تطبيق نظرية « الباب المفتوح » . فهي تعطي لكل طرف فيها الحق  
في الحصول على المواد الأولية دون السماح بتفضيل تجارة دولة معينة على  
دولة أخرى . وتقدم مذكرة حزب العمال الانجليزي التوسع في تطبيق  
نظرية الباب المفتوح على جميع المستعمرات وإقامة رقابة دولية عليها

مستوحاة من نظام الانتدابات الذي ابتدعته عصبة الأمم عقب الحرب العالمية الماضية<sup>(١)</sup>

ولكن حزب العمال ينسى — أو يتناسى — أن هذه الأراضي التي خضعت قهراً لنظام الاستعمار ليست ضياعاً تملكها الإمبراطوريات الأوروبية. وأن أهل هذه الأراضي هم — من وجهة النظر الديمقراطية — أصحاب الرأي الأول والأخير في تقرير مصيرهم واختيار شكل حكومتهم. وتحديد موقفهم من المواد الأولية التي ينتجونها وتبين مصالحهم الحقيقية في طريقة توجيه تجارتهم وصناعاتهم.

ولا أدري إذا كانت سياسة حزب العمال الإنجليزية الاستعمارية قد تطورت في العامين الأخيرين تطوراً تأثر باعتبارات الحرب العالمية الأخيرة وبالمبادئ السامية التي أوجت بقرارات مؤتمر موسكو في أكتوبر ١٩٤٣ و « يالتا » في فبراير ١٩٤٥ فقد قرر مؤتمر الحزب الذي عقد في « بلاكبول » في مايو ١٩٤٥ في صدد سياسة الحزب الخارجية ، تأييد مبدأ « الأمن الدولي الذي تشترك في إقراره كافة الدول ويستند إلى هيئة عالمية تتوفر لها الإرادة والقوة اللتان تمكنانها من منع الاعتداء والتي يجب على بريطانيا أن تتأهب للاشتراك فيها بالأسلح والرجال . والحزب يقطع على نفسه عهداً لا تقض له بالأحرص الدول الصغيرة على التحرش بالدول الكبيرة » ولكن الظاهر — إلى الآن — أن هذا الحزب الذي لبرنامج مسحة ديمقراطية لا تزال تعوزه الشجاعة الكافية لإعلان

سياسة صريحة تنفر من الاستعمار وتنكر أخطاء الماضي وتقر الشعوب المستعمرة أو الموضوعات تحت الحماية أو الانتداب على حقها في حكم نفسها بنفسها. قد تقف إذن بعض الصعوبات في وجه مبدأ «أفريقيا للأفريقيين» الذي ندعو إليه ، ولكن إذا تعاونت مصر - كزعيمة لمجموعة الشعوب السامية الحامية التي تتكلم العربية وتدين غالبيتها العظمى بالاسلام والتي تقع في شمال خط الاستواء - مع اتحاد جنوب أفريقيا - كزعيم لمجموعة الشعوب الآرية التي تتكلم لغات أوروبية وتدين غالبيتها العظمى بالمسيحية وتقع جنوب ذلك الخط - في الدفاع عن المبدأ والترويج له - إذا تم هذا التعاون بين مصر واتحاد جنوب أفريقيا فإني أؤمن بأن فكرة «الجامعة الأفريقية» ستخرج إلى حيز التنفيذ في وقت أقرب مما يتصوره الكثيرون . ومما يساعد على هذا التفاؤل أن الضمير العالمي قد بدأ يشمئز من الأفكار الرجعية والأوضاع العتيقة التي تميز بين الناس بسبب ألوان بشرتهم أو اختلاف أوطانهم من الوجهة الجغرافية . أو تباين دياناتهم .

فكرة البرتغاليين في استعمار أفريقيا واستعباد الأفريقيين كانت تقوم على أساس أن ديانة هؤلاء الأفريقيين هي ديانة عبيد! ولذلك فإنه كان يحق للأفريقي أن يتحرر من الرق إذا اعتنق الدين المسيحي . كما أن الهولنديين الذين جاؤوا إلى «الكاب» بين عامي ١٥٩٥ و ١٦٥٠ كانوا قد تلقوا تربية دينية تقليدية جعلت للدين لديهم أهمية قصوى ، وجعلتهم يتعلقون بديانتهم المسيحية تعلقاً شديداً ويتخذونه حذراً فاصلاً بينهم وبين ال «هوتنتوت» سكان البلاد الأصليين الذين لم يلبثوا أن حرموا من تلك أراضي بلادهم والذين كانوا يعتبرون أعداء للهولنديين المستعمرين . ولكن نظرية اتخاذ الدين أساساً للتفرقة لا تزال قائمة إلى اليوم فإذا اعتنق أحد

« الهوتنتوت » الدين المسيحي واستوفى اجراءات « التعميد » استطاع أن يتغلب على الفارق الذي يعود إلى اختلاف اللون . وقد ثبت في أوائل عهد الهولنديين بجنوب أفريقيا أن عدداً من النساء السود اللاتي جىء بهن من « البنجال » بالهند إلى « السكاب » قد سمح للبعض بالتزوج منهن بعد أن اعتنق المسيحية . كما أن الطفل الذي هو ثمرة زواج بين أوروبي وزنجية كان يعد عضواً في المجتمع الأوروبي وبعد تعليمه « وتعميده » تمنح له الحرية (١)

ويعترف الاخصائيون الأوروبيون في مشكلة الألوان والأجناس أن الدين الاسلامي يقوم على أساس ديموقراطي وطيد فهو لا يفرق بين الناس بسبب اختلاف ألوانهم (٢) وأنه قد لوحظ أن الأفريقي على استعداد دائم بخدمة العربي المسلم بل أنه شعوف إلى اليوم بخدمته (٣) . الضمير العالمي قد بدأ يشمئز من تلك التفرقة التقليدية الآتمة بين الناس بسبب اللون أو الجنس أو الدين أو الموقع الجغرافي . فهناك من يذهب إلى أن كلمة جنس race ، كما كانت تستعمل عامياً للتفرقة بين الجماعات الانسانية ، قد فقدت حدة معناها . وأنه من المرغوب فيه أن تستبد كلمة « جنس » من قاموس العلم (٤) .

وهناك من يذهب إلى أن أرسطو نفسه في الفصول الأولى من كتابه

(١) Mac Crene : Race Attitudes in South Africa-P 7,45 طبعه

. ١٩٣٧

A. G. Russell : Colour, Race, and Empire-p.13 (٢)

Orde Browne : African Labourer-P 14 (٣)

Huxley and Haddon - We Europeans-P 91 (٤)

« السياسة » Politics قد تعرض لنظم الرق التي كانت ضرورة من ضرورات السياسة والاقتصاد في عهده ولم يعد أن قال إن بعض الرجال يجب أن يكونوا عبيدا أينما حلوا، والبعض الآخر لا يجب أن يسترقوا إلا في مكان معين وإن بعض العبيد لهم أرواح الأحرار والبعض لهم أجسام الأحرار فقط ولكن أرسطو لم يستطع أن يحكم على جنس بأ كمله بأن يكون مجموعة أرقاء بسبب لا يمكن تغييره هو الدم أو اللون . وفي الواقع يبدو من الصعب أن يجد الباحث في تاريخ اليونان أو روما أى دليل على التفرقة بين الناس بسبب الجنس أو اللون . ولم تظهر محاولة هذه التفرقة إلا في القرن التاسع عشر . وكان الغرض من تلك المحاولة تأييد السيادة السياسية والاقتصادية التي كان يزعمها الرجل الأبيض على الأجناس الأخرى وذلك بالسعى لإثبات نوع من السيادة الغريزية في الجنس الأبيض أو — بتعبير أضيق — في الأجناس الشمالية Nordic<sup>(١)</sup>

وقد انتشرت تلك الفكرة الآئمة في القرن التاسع عشر وأوحت إلى بعض الكتاب بأسس خاطئة للبحث التاريخي فذهب بعضهم إلى أهمية وجوب الدعوة إلى الابقاء على نقاء الجنس الأبيض وزعم أن كل المدنيات قد انحدرت من ذلك الجنس وأنه لولاه لما ظهرت مدنية قطع على وجه الأرض<sup>(٢)</sup> وهى أسس لاستدعى عناء الرد عليها من الوجهة التاريخية العلمية . فقد أثبتنا في باب « مصر : مقبرة الغزاه » أن أول مدنية ظهرت

(١) A. G. Russell — المرجع السابق ص ١٤ .

(٢) Arthur de Gobineau: *Traité sur l'inegalité des races humaines*

أجزاء أربعة ، صدرت بين عامي ١٨٥٣ — ١٨٥٥ .

على أرض أفريقيا في مصر . وعلى يدى جنس غير الجنس الأبيض الشمالى .  
ويذهب آخرون إلى أن أجناس البشر تنقسم إلى ما لا يقل عن خمسين  
مجموعة تختلف كل مجموعة عن الأخرى في المظاهر الجسدية . وهذه المجموعات  
إذا قسمت تقسيماً أوسع لا يقل عددها عن خمسة عشر <sup>(١)</sup> ولذلك فمن العبث  
قسمة الجنس البشرى إلى « أبيض » و « ملون » لأن هذه القسمة لا تستند  
إلى أساس علمى . كما أن تجريد الأفريقى الأسود من الفضائل الخلقية  
لا يوجد له سند علمى هو الآخر فالأخصائيون فى علم الأجناس يقررون  
أنه يمتاز بشعوره بالمسؤولية نحو الجماعة التى يعيش فيها وقد تعلم أن يفرق  
شخصيته الفردية فى حياة الجماعة التى ولد فيها . وهو لا يتردد فى المساهمة  
بنصيبه فى مساعدة الضعيف والمسن وفى أداء الجزاء الذى يترتب على ارتكاب  
أحد أفراد الجماعة التى ينتمى إليها العمل يستحق العقاب وفى احترام الحياة التعاونية  
التي تعيشها قبيلته . وهو لا يطمع فى الحصول على ثروة شخصية ترتفع به  
عن مستوى مواطنيه . كما أن زعيم القبيلة لا يستحل لنفسه أن يغتصب  
أموال القبيلة وأراضيها ويتصرف فيها كما يهوى . وليس لهذا الزعيم أن  
يتنازل لأجنبي عن أموال الجماعة التى يتزعمها لأنه ليس مالكاً لهذه  
الأموال بل انه أمين عليها وكل أحكامه وقراراته يجب أن توحى بها  
مصلحة المجموع لا المصلحة الشخصية . والأفريقى يعد الكرم فضيلته  
الرئيسية . وهو بالاختصار يعيش فى جماعة تعد خير تصوير لنظرية  
« كروبوتكين » عن « المساعدة المتبادلة » Mutual aid ولذلك يشعر  
بتغيير مؤلم عند ما يرغم على مفارقة هذين المبدأين وينتقل الى عالم غريب

عنه وهذه الغرابة تبدو أشد لا في قيام هذا العالم على أسس ميكانيكية بل في جهل هذا العالم بدين الأفريقي وشعوره نحو قبيلته وآدابه ونظرياته الخلقية (١)

ويحيل إلى الكثيرين أننا كلما اقتربنا من خط الاستواء وجدنا أن الأهالي أسود بشرية . ولكن العالم لا يقر هذه الفكرة قط . فليس صحيحاً أن الذين يعيشون في الجو الأشد حرارة تكون بشرتهم أشد سواداً . فقد لاحظ لورد راجلان Raglan أن الزوج الذين يعيشون في وادي نهر « امازون » — وهي منطقة من أشد مناطق العالم حرارة — ليسوا سوداً . ولكن لونهم مزيج من الصفرة والاسمرار . يقرب من لون « الاسكيمو » الذين يعيشون في منطقة القطب وهي من أشد مناطق العالم برداً . بينما أهل جزيرة سيلان أقل سواداً من أهل جنوب الهند الذين هم أبعد منهم عن خط الاستواء . ويقرر ايهرليخ Ehreulich ان الذين يعيشون في جو بارد جاف معرضين لأشعة الشمس قد يكونون أشد سواداً من الذين يعيشون في جو حار ورطب ولكن منازلهم داخل غابات لا تتخللها أشعة الشمس

كما أنه لم يثبت إلى اليوم بطريقة علمية أن الجلد الأسود يعطى لسكان المناطق الاستوائية وسيلة أفضل من وسائل الوقاية من حرارة الجو أو من قوة أشعة الشمس الكيماوية الخطرة . وقد يبدو أن جلد الزنجي أسماك من جلد الرجل الأبيض وانه لذلك أقل احساساً بأشعة الشمس ولكن هذا أيضاً لم يثبت كما لم يثبت من قبل أن جلده الأسود قد اكتسب لونه القاتم بسبب أشعة الشمس وبالاختصار يكاد يكون من المستحيل

وضع قواعد علمية لهذا الموضوع <sup>(١)</sup> ويذهب أيضاً الاخصائيون في علم الأجناس ومنهم الأستاذ لايد Lyde إلى أن أنف الزنجي العريض وشفتيه الغليظتين وصدغيه اللذين يبدو أنهما يحميانه من خطر ما - كل هذه الميزات الجسدية قد حبتها بها الطبيعة لكي يتمكن من أن يستنشق من الأوكسيجين أكبر قدر ممكن ويدخله الى رئتيه لأن كمية الأوكسيجين في المناطق الاستوائية أقل من كميته في المناطق المعتدلة الجو . وقد ثبت أن لون البشرة الأسود قد يزول بسبب الظروف الطارئة كالخوف الشديد أو التقدم في السن أو الاغماء ، ولذلك فليس مما يثير العجب أن يوجد في المناطق الاستوائية أفراد يميل لون بشرتهم الى البياض كما أن بعض أجزاء جسم الزنجي التي لا تعرض لأشعة الشمس يغلب ألا يكون لونها أسوداً بل أصفراً . والاطفال الزوج لا يولدون سود البشرة وإنما يكتسبون هذا السواد فيما بعد . ويفضل الاخصائيون في علم الأجناس anthropologists أن يتخذوا الشعر كقياس لتحديد نوع الجنس وقد وضعت عدة قواعد لاتخاذ شكل الرأس مقياساً آخر لذلك التحديد <sup>(٢)</sup> ولكن هذه المحاولات قد قضى عليها العلم الحديث القائم على النظرة الواسعة الرحبة إلى بنى الانسان فتقرر بأن علم الأجناس يؤيد النتيجة المستمدة من التاريخ . « فسواء اتخذنا لون الجلد أو العينين أو الشعر أو نوع الشعر أو شكل الرأس أو المقلتين أو الصدغين أو الأنف كقياس لتحديد نوع جنس ما فان من المستحيل النظر الى ذلك المقياس

Gregory: The Menace of Colour (١)

Haddon: Races of Mankind-P.5 (٢)

المستمد من المميزات الجسدية كأساس علمي ثابت للاهتداء الى طراز نفسى  
أو اجتماعى معين يتسم به البشر»<sup>(١)</sup>

ولم يشر تألم الضمير العالمى من تلك التفرقة الأثيمة بين الرجل الأبيض  
وأخيه الأسود عن هذه الحقائق العلمية فحسب بل انه تعداها الى كشف  
إجرام السياسة الاستعمارية إذ يقرر البعض أنه اذا كانت فرنسا قد  
نجحت فى اكتساب ولاء بعض زنوج أفريقيا فانها فعلت ذلك بعد ان  
جعلت اولئك الزنوج يدفعون الثمن غالباً بتعريض جنسهم للخطر وذلك  
بمساها لرؤساء اولئك الزنوج بالتدرج فى المناصب الفرنسية وبيث نفسية  
الرجل الأبيض فيهم وبتحريضهم على استغلال مواطنيهم اقتصادياً  
وبذلك يصبحون «العبيد العقلين» لفرنسا. ولا يعودون يفكرون فى  
العمل على تقدم جنسهم خارج النطاق الذى وضعته الحكومة الفرنسية  
أو النظم الاقتصادية الفرنسية<sup>(٢)</sup> ولا شك أن كل تعليم نشرته فرنسا فى  
مستعمراتها الافريقية إنما رمت من ورائه إلى تحقيق غرض سياسى لا إلى  
رفع مستوى الافريقيين .

وليس هذا الاثم قاصراً على فرنسا فان بقطة الضمير العالمى قد دفعت  
المؤرخين الألمان إلى كشف الستار عن فظائع الاستعمار الألمانى نفسه فقررروا  
أن التصميم على استعمار جنوب غرب افريقيا لايعنى إلا شيئاً واحداً هو  
إرغام القبائل على هجر الأراضى التى كانوا يعيشون ومواسيهم على حشائشها  
لكى يستولى الرجل الأبيض عليها.<sup>(٣)</sup> وكانت نتيجة هذا الاستعمار

(١) Maciver : Community, p. 275

(٢) Foreign Affairs, April 1925, — W. E. B. Dubois.

(٣) Paul von Rohrbach : Deutsche Kolonial Wirtschaft, Steer : —

الأثيم أن هبط عدد الأهالي الأصليين في عام ١٩٠٥ من تسعين ألفاً إلى خمسة عشر ألفاً وبعد أن كانت الأراضي التي يملكها أولئك الأهالي ٣٢٢ ألف ميل مربع هبطت إلى أربعة آلاف !؟

وقد تفتت بعض المفكرين الذين عاجلوا مشكلة الأجناس والألوان إلى أن الطفل الذي ينشأ في إحدى الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة يتعلم أن ينظر إلى الإنسان نظرة عامة ولكنه لا يلمث أن يتعلم التفرقة بين الرجل الأبيض والزنوج وهذه التفرقة تكبر وتضخم بينما يهمل التفكير في أوجه الشبه بين بني الإنسان إلى حد أن يصبح في حالة عقلية تحذره من خطر استيعاب معنى كلمة « الإنسان » بدون التفريق بين النوعين <sup>(١)</sup> واعترفوا بأن التعليم في الوقت الحاضر هو الذي يشدد الشعور بتلك التفرقة ويساعد على إذكاء روح الحقد بين بني الإنسان باعتماده على بعض المظاهر التاريخية . أو يجعل « شرير » القصة المسرحية أو السينمائية رجلاً أسود . وباغفال المتولين شؤون التربية ، فكرة تعليم النشء مبدأ التعاون بين الأجناس والألوان <sup>(٢)</sup> .

ومما يثير الانتباه أننا نجد نسبة الأوروبيين في مستعمرات أفريقيا المختلفة ناقصة ضئيلة لا تكاد تذكر فهي على التوالي بالنسبة لكل مائة ألف أفريقي : ستة من الأوروبيين في أوغندا وستة في نيجيريا وتسعة في ساحل الذهب وعشرة في أفريقيا الاستوائية الفرنسية وخمسة عشر في أفريقيا الغربية الفرنسية وستة عشر في تنجانيقا وأربعة وعشرين في الكونغو وخمسة وستين في كينيا وأربعة وثمانين في روديسيا الشمالية . فإذا

McDougall—Psychology p.95 (١)

(٢) A. G. Russell — المرجع السابق ص ٣٠

نظرنا إلى هذه النسبة من زاوية أخرى لتبين لنا ان عدد سكان افريقيا يقدر بين ١٣٨ مليوناً و ١٦٣ مليوناً من الأنفس ومساحتها نحو ١٢ مليوناً وربع المليون من الأميال المربعة . وأن البريطانيين - ومن بينهم أهالي اتحاد جنوب افريقيا - يحكمون ربع مساحة القارة الافريقية وثالث السكان . وأن الفرنسيين يحكمون نفس النسبة وأن الباجيكيين يحكمون واحداً على ثلاثة عشر من المساحة وواحداً على تسعة عشر من السكان<sup>(١)</sup> وقد ثبت من التقرير الذى وضعتة اللجنة التى شكلتها وزارة المستعمرات الانجليزية عام ١٩٣٦ من «المجلس الاقتصادى الاستشارى» والتي نشر تقريرها عام ١٩٣٩ انه « فى جميع أجزاء المستعمرات التابعة للامبراطوية اتضح أن إيراد الغالبية العظمى من الأهالى أخط بمراحل من الحد الأدنى الضرورى للحصول على الغذاء الصحى الكافى » وقد قطع هذا التقرير بأن الغذاء غير الصحى هو السبب الرئيسى فى ارتفاع نسبة الوفيات بشلل الاطفال وهى النسبة التى تزيد عن مائتين فى الألف من المواليد فى معظم أنحاء الامبراطورية وأحياناً تتجاوز الثلاثمائة فى الألف وهذه النسبة تصل إلى عشرة أضعاف أمثالها فى قطر كاستراليا الجنوبية حيث لا تتجاوز هناك ٣٠.٥ فى الألف وهى فى انجلترا وويلز لا تتجاوز سبعة وخمسين فى الألف

وقد ثبت رسمياً من الاحصاء الذى اجرى فى ٣٠ يونيو عام ١٩٣٨ فى «مدينة الرأس» Capetown ان وفيات الذين تقل أعمارهم عن خمسة وعشرين سنة لم تتجاوز ١٧ فى المائة بين الأوربيين ولكنها وصلت الى

٥٨ في المائة بين الأفريقيين . وبلغت نسبة الوفيات بين هؤلاء الأهالي بسبب السبل ستة أضعاف النسبة بين الأوروبيين ووصلت هذه النسبة الى عشرة أضعاف في اتحاد جنوب افريقيا عام ١٩٤١ <sup>(١)</sup>

وقد بلغ استغلال الشركات الأوروبية للمستعمرات الأفريقية إلى حد يقشع منه الضمير الانساني ، ففي روديسيا الشمالية مثلاً ازدهرت خلال الأعوام الستة عشر الأخيرة صناعة استخراج النحاس . وبلغ ثمن الكميات التي باعها الشركات التي تستغل مناحم النحاس الأفريقية ١٠٠٠ و ٢٠١ و ٨٠ في عام ١٩٣٨ ومن هذا المبلغ لم ينل العمال الوطنيون الذين تولوا حفر المناجم واستخراج المعدن من جوف الأرض الا نصف مليون من الجنيهات بينما استولى حملة الأسهم من المولدين الأوروبيين على ٣٠٠٠ و ١٠٠ و ٣٠٠٠ جنيهاً وفي عام ١٩٣٥ دفع منجم واحد ربحاً قدره ٦٢ في المائة لحملة أسهمه . وكل هذه الأرباح معفاة من أية ضريبة ! ويبقى بعد ذلك أن تعلم أن أجره العامل الأفريقي اليومية تراوح بين تسعة بنسات وثلثين بنسات بينما أجره العامل الأبيض لا يقل يوماً عن ثمانية وعشرين شلناً وست بنسات ! وليس هذا التفريق الظالم قاصراً على روديسيا بل أنه قاعدة في جميع مستعمرات افريقيا فان العمال الأفريقيين في مناجم ساحل الذهب يتناولون أجراً سنوياً قدره تسعة وعشرين جنيهاً وأربعة شلنات بينما يتناول العمال الأوروبيون ستمائة وستة وخمسين جنيهاً وخمسة عشر شلناً !

ويعتبر المفكرون الأحرار — حتى من الانجليز — مستعمرة كينيا

---

(١) مجلة The Cape Town Sun عدد ٧ نوفمبر عام ١٩٤١ ومجلة South African Outlook عدد ١ أكتوبر عام ١٩٤١ . وقد تساءت هذه المجلة « لماذا يدفع أهل الطول بمجرد ولادته الى إحدى شركات التأمين قسطاً خاصاً بنفقات دفنه ؟ »

نقطة سوداء في تاريخ الامبراطورية سواء من جهة انحطاط أجور العمال الأفريقيين فيها أو من جهة نظام السخرة المفروض على أولئك العمال . فأجرة العمل في مناجم الذهب لا تتجاوز إحد عشر شلنا وست بنسات في الشهر . وكثيرون من العمال يقضون نصف العام في مثل هذا العمل لكي يمكنهم دفع الضرائب التي تحصلها الحكومة منهم وهي لا تقل بالنسبة للفرد الواحد عن ثلاثين شلنا في العام ولكي يستمضوا به عن النقص في محصول قطعة الأرض الصغيرة التي تسمح الحكومة لهم بزراعتها والتي تتراوح مساحتها بين ثلاثة أقدنة وأربعة . فاذا عجز الأفريقي — وحده — عن الوفاء بكل هذه الالتزامات عمد الى تسخير أولاده . وينص القانون رقم ١٩٣ لسنة ١٩٣٧ على أن « الأب . . . . أو الولي الشرعي على الطفل الأفريقي . . . يجوز له إذا كان هذا الطفل قد تجاوز عشرة أعوام من عمره أن يستخدمه برضاه كصبي في أحد الأعمال لمدة لا تتجاوز خمسة أعوام » فها هو مصير الأطفال الأفريقيين طبقا لهذا القانون ؟ إنهم قد يرسلون الى جهات تبعد خمسمائة ميل عن بيوت آبائهم ويعيشون هناك بدون رقابة حازمة ويتعرضون للوقوع فريسة للموبقات الخلقية وادمان الخمر . وقد تألفت لجنة حكومية لبحث فضيحة ادمان الاطفال الافريقيين على الخمر فلم تتورع عن أن تقرر أن أولئك الأطفال قد « تماطوا الخمر فعلا ولكن هذا لا يستحق أن يسمى عملا فاضحا ! »<sup>(١)</sup>

والدليل القاطع على عدالة مانطاب به من جعل « افريقيا للافريقيين » وادماج هذه القاعدة بين قواعد القانون الدولي العام التي لا يجوز الخروج عليها أو المساس بها كما سبق أن أدجت قاعدة « أمريكا للامريكيين » التي

نادى بها مؤزرو — ان كل الجهود التي بذلت للارتفاع بمستوى الافريقيين وتحسين صحتهم . ونشر العلم بينهم إنما بذلها الافريقيون أنفسهم . وأن هذه الجهود قد قوبلت — على الدوام — بمعارضة شديدة من الاوروبيين المستعمرين . ففي عام ١٩١٥ قام Chilembwe — وهو أحد أهالي نياسالاند Nyasaland بحملة ضد الشروط المرهقة التي يفرضها أصحاب الأعمال على العمال الوطنيين . وفي عام ١٩١٩ قام Kadalie وهو الآخر من أهالي نياسالاند بمحاولة لتحسين حالة أبناء جنسه البانتو Bantu فأنشأ «الاتحاد الصناعي والتجاري لعمال جنوب أفريقيا» وقد أثبتت المحاولتان أن أهل تلك الأقطار من جنوب أفريقيا أذكاء وشجعان وأن الأمر لا يستدعى أكثر من تسهيل سبل العلم لهم<sup>(١)</sup> وقد أصابت تلك الجهود الافريقية بعض التوفيق في بادئ الأمر حتى قيل إن هيرتزج Hertzog — وهو أحد زعماء الأوروبيين في جنوب أفريقيا — كان يؤيدها ولكنه لم يلبث أن حاربها بشدة بل بتوحش عندما تولى رئاسة الوزارة ولم تكذب تنقضى سبعة أعوام على بدء «كادالي» حركته حتى خمدت بعد أن اشترك العمال الأوروبيون مع السلطات الحكومية في إخمادها وهذه الحركات الفكرية الوطنية التي يتولى قيادتها أفريقيون صميمون لم تقتصر على جنوب أفريقيا بل تعدته إلى غيره من أقطار أفريقيا . ففي «سيراليون» نظم «أوريا باتلر» Uriah Butler حركة اضراب عام ١٩٣٧ فانتهزت السلطات الحكومية فرصة الحرب الأخيرة واعتقلته وقيل إنها نفته إلى جزيرة صغيرة بقرب ترينيداد . كما أن تلك السلطات لم تكف بحبس وايم جونسون William Johnson رئيس «اتحاد مؤتمر عمال سيراليون»

بتهمة القذف في مقال نشره قبل اعلان الحرب ببضعة شهور بل انها اعتقلته طول مدة الحرب بمقتضى قوانين الدفاع عن المستعمرات .

ومن المبادئ المالية المسلم بها في ميزانية اتحاد جنوب أفريقيا عدم الزام حكومة الاتحاد المركزية ولا السلطات الحكومية في الأقاليم بأية أعباء مالية تنفق على تعليم البانتو أى الافريقيين الأصليين أو على الخدمات الاجتماعية . فلا توجد أية فكرة عن معاملة هذا الافريقى كمواطن له حقوق المواطنين في وطنهم وبالتالي لم يخطر ببال المشرع المالى أى خاطر عن إزام الأوروبين بدفع ضرائب تنفق على أهالى البلاد الأصليين (١)

هذا هو الوضع المذل الذى أراد الأور بيون البيض المستعمرون أن يضعوا فيه أهل أفريقيا الأصليين وأصحاب أرضها ولعل خير ما يعبر عن شعورهم هو قول المؤرخ اليونانى ثيوسيديد Thucydides « قد يكون من مصالحتكم أن تكونوا سادتنا . ولكن كيف يمكن أن يكون من مصلحتنا أن نكون لكم عبيداً ؟ » (٢)

لذلك يجب ألا يغرب عن أذهانتنا أن هذه القارة التى ولدنا على أرضها ونعيش فيها هى منبع خير عميم آثار جشع أقوى دول العالم . فمصر هى ثالث دولة فى العالم تنتج القطن . وقطنها هو أجود أنواع القطن والترنسفال هى أكبر دولة فى العالم تنتج الذهب ورغم أنه لم يكتشف فى مقاطعة Rand إلا عام ١٨٨٥ إلا أنها أصبحت تصدر ٢٥ فى المائة من ذهب العالم (٣)

(١) Macmillan : Africa Emergent, P. 183

(٢) Thucydides : Histoire de la guerre du Péloponèse T. 4

(٣) يذكر الدكتور حسن كمال فى بحثه عن « مصر والسودان » مجلة « الانتظاف » عدد ابريل ١٩٣٦ أن قدماء المصريين هم أول من عرفوا فضل الذهب وبذلوا غاية جهدهم فى استخراجها مما بدت مناجه عنهم وأن ديودورس الصقلى وصف =

ومناجم كمبرلى Kimberly بجنوب أفريقيا تنتج ٨٠ في المائة من ماس العالم . ومراكش والجزائر تصدر الحديد . وسائر أقطار أفريقيا تنتج قدرأ عظيماً من المواد الأولية التي لاغنى للعالم عنها . فعلى الأفريقيين أن يؤمنوا بعدالة قضيتهم . وبأن أول مدينة شع ضوؤها على العالم نشأت على أرضهم في مصر . وأن العالم ظل يتخبط في ظلمات الجهل قرونأ عديدة بينما كانوا هم — كما تشهد آثارهم — يكتبون أول صفحات المجد في تاريخ الحضارة . وأن يعتمدوا على أنفسهم في تحقيق آمالهم البديهة المشروعة لأن « الجواد يحمل الانسان الى حيث لا يستطيع قدماه أن تحمله . والسيارة تحمله إلى أبعد مما يستطيع الجواد أن يحمله ، ولكن أية سيارة ليست أفضل من قلب الانسان الذي يقوده » (١)

فاذا امتلأت قلوب الأفريقيين إيماناً بعدالة قضيتهم فان أية قوة في الوجود لا يستطيع أن تثنيهم عن تحقيق مطالبهم لأن الضمير العالمى أصبح يوقن معهم بأنه « لن يكون هناك سلم دائم ولا أى احتمال بتحقيق سلم عادل مادامت الشعوب المحكومة والمستغلة بواسطة أية حكومة غريبة عنها ضد إرادتها لم تسترد حريتها » (٢)

---

== مقبرة يغلب أنها لرئيس الثانى تمثل الملك يقدم للآلهة مقادير من الذهب تقدر بنحو ثمانين مليوناً من الجنيهات .

(١) Ernest Hemingway :Men at War

(٢) Ernest Hemingway ; For whom the bell tolls